القضية الأندلسية في الاسطوغرافيا الاسبانية وتداعيات تفاعل السلطة العثمانية معها على الواقع العسكري لإيالة الجزائر

The Andalusian cause in the Spanish historiography and the repercussions of the interaction of the Ottoman authority with it on the military situation of Algeria

✍اسم ولقب المؤلف المرسل: غراف هجيرة- GHOURAF Hadjira صص215- 234
الدّرجة والعنوان المهني: طالبة دكتوراه ل.م.د- وباحثة في مخبر مصادر وتراجم- جامعة وهران1- الجزائر.
البريد الإلكتروني: ghouraf.hadjira@edu.univ-oran1.dz
✍ اسم ولقب المؤلف الثاني: أ.د حمدادو بن عمر- HAMDADOU Benamar
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ- جامعة وهران1- الجزائر.
البريد الإلكتروني:sidahmedh1976@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2020/06/01 تاريخ المراجعة: 2020/07/05 تاريخ القبول: 2020/07/20

الملخص باللغة العربية: يعرض هذا المقال موقف الخطاب الإسباني الإيديولوجي والمعتدل من القضية الأندلسية، وذلك من أجل الخروج بتصورات موضوعية حول هذا الموضوع، بمنهج تاريخي تحليلي وصفي، يستند على عرض موقف الأسطوغرافيا الإسبانية من هذه القضية والمقارنة بينها، بحيث تأرجحت هذه الكتابات ما بين التعصب للدين والعرق تبعا للتأثر بالأحداث التاريخية التي تميزت بمظاهر التطهير العرقي والديني، وما بين محاولات التخلص من الإرث التقليدي للكتابات التي اتسمت بالطابع الديني المتعصب، والتي خضعت للجهات الرسمية ولسيطرة الكنيسة، بحيث يعرض هذا المقال بعض النماذج من مجموع هذه الكتابات، والتي أثرت على مجموع الكتابات الإسبانية المعاصرة في ظل التدافعات الثقافية والحضارية التي لا تزال تطبع العلاقات بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي، والخطابات العنصرية التي تعكس انحيازا معرفيا في الحقول التاريخية.

وقد عرفت الجزائر هجرة أندلسية واسعة بعد الأعمال غير الإنسانية التي طالت مسلمي الأندلس، والتي دفعتهم إلى التوافد على الدويلات المغاربية منذ سقوط غرناطة، وقد أثر انضمام الجزائر للدولة العثمانية على مسار هذه القضية، على اعتبار بروز هذه الإيالة كأول إقليم مغاربي تحت بوتقة السلطة العثمانية، مشكلة نوبة عثمانية وجهة متقدمة في البحر الأبيض المتوسط، وقد تفاعلت السلطة العثمانية مع هذه القضية، وتبنت الدفاع

عنها انطلاقا من النشاط البحري لإيالة الجزائر، التي استقبلت عددا كبيرا من مسلمي الأندلس الذين قدموا إلى جانب دورهم الحضاري والفني خدمات عسكرية هامة.

الكلمات المفتاحية: القضية الأندلسية؛ الاسطوغرافيا الاسبانية؛ الجزائر؛ السلطة العثمانية؛ الهجرة الأندلسية؛ البحر الأبيض المتوسط؛ النشاط البحري؛ الأعمال العسكرية؛ التحصينات العسكرية؛ الصناعة الحربية.

ABSTRACT: This article presents the position of the Spanish ideological and moderate discourse on the Andalusian issue in order to come up with objective perceptions on this subject, with a historical, analytical and descriptive approach, based on the presentation and comparison of the position of the Spanish stoicism on this issue, so that these writings swung between intolerance of religion and race depending on the historical events characterized by manifestations of ethnic and religious cleansing, and between attempts to get rid of the traditional legacy of writings that were religiously fanatical and subject to official authorities and the control of the Church, so that this article presents some examples of the patterns of ethnic and religious cleansing, and between attempts to get rid of the traditional legacy of writings of a religious fanatic that has been subject to official authorities and the control of the Church, so that this article presents some examples of the historical events that have been characterized by manifestations of ethnic and religious cleansing. The sum of these writings, which influenced the totality of contemporary Spanish writings in the light of the cultural and cultural stampedes that continue to characterize relations between the Muslim and Christian worlds, and racist discourses that reflect a cognitive bias in the historical fields.

Algeria has experienced a large Andalusian migration after the inhuman acts of the Muslims of Andalusia, which led them to flock to the North African states since the fall of Granada, and the accession of Algeria to the Ottoman Empire in the course of this issue, considering the emergence of this mechanism as the first Maghreb region under the crucible of Ottoman power, the problem of an Ottoman advanced front in the Mediterranean, has affected. The Ottoman authority reacted to this issue and adopted its defence based on the naval activity of the Algerian Authorities, which received a large number of Andalusian immigrants who, in addition to their cultural and artistic role, provided important military services.

Keywords: Andalusian cause; Spanish historiography; Algeria; Ottoman authority; Andalusian migration; Mediterranean; maritime activity; military activities; military fortifications; military industry; military establishment.

المقدمة: عرفت القضية الأندلسية إنتاجا اسطوغرافيا كبيرا، تطرق لمعالجة الأبعاد الدينية لهذه القضية بالدرجة الأولى، من خلال المنتوج التاريخي الاسباني، وقد تفاعلت القوى الفاعلة في المنطقة المتوسطية مع هذه القضية خاصة بعد ظهور الإخوة بربروس في البحر

الأبيض المتوسط، والذين ساهموا في عثمنة المجال المغاربي تدريجيا انطلاقا من إيالة الجزائر، وعلى هذا الأساس لعبت هذه الإيالة دورا هاما في التفاعل مع هذه القضية بجميع أبعادها، هذا ما حمل مظاهر التأثير الإيبيري على هذا الفضاء الجغرافي، خاصة ما يتعلق بالمظاهر العسكرية.

سنحاول ضمن هذا المقال التعرض لحضور القضية الأندلسية في الخطاب التاريخي الإسباني، وأثر انضمام الجزائر للدولة العثمانية على هذه القضية، والذي انعكس على الدور العسكري للعنصر الأندلسي الوافد إلى الجزائر، وحتى يتسنى لنا التغطية الشاملة لموضوع دراستنا سنحاول التعرض لتحليل الخطاب الاسباني الإيديولوجي والخطاب المعتدل ونظرته للقضية الأندلسية، إضافة إلى الدور العسكري للأندلسيين في هذه الإيالة والذي لا ينفصل في تأثيره عن المظاهر العسكرية المادية، من أجل الخروج بتصورات تقضي بإحياء معالم التواجد الأندلسي في الجزائر في الفترة العثمانية، معتمدين على المنهج التاريخي التحليلي الوصفي، إضافة إلى المنهج المقارن في عرضنا لبعض الكتابات التاريخية.

تتمحور إشكالية هذا البحث حول أثر حضور القضية الأندلسية في الخطاب الإسباني على واقع الكتابة التاريخية في ظل التدافعات الحضارية، وأثر تفاعل السلطة العثمانية مع القضية الأندلسية على المجال العسكري لإيالة الجزائر في ظل الطابع العسكري الذي اتسمت به. فعلى أي أساس استند الخطاب الإسباني في تناوله للقضية الأندلسية؟ إلى أي مدى عبرت هذه القضية عن البعد الإنساني في الكتابات التاريخية في ظل التدافعات الثقافية؟ وكيف انعكس انضمام الجزائر للدولة العثمانية على واقع هذه القضية؟ وما هو الدور العسكري للأندلسيين في الجزائر؟ وما مظاهره المادية؟، حيث تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على طبيعة الكتابات التاريخية حول القضية الأندلسية ودور العنصر الأندلسي في إيالة الجزائر من خلال الأعمال العسكرية المختلفة وانعكاساتها على واقع هذه الإيالة في ظل الظروف الإقليمية والدولية المحيطة بها.

1- القضية الأندلسية في الخطاب الإسباني:

1-1الخطاب الإيديولوجي: تأثرت الاسطوغرافيا الاسبانية المعاصرة بمجموع الكتابات التاريخية والأدبيات الإسبانية، التي تزامنت والأحداث التاريخية التي شهدتها شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، والتي أثرت على طبيعة الكتابات التاريخية في القرن السادس عشر، فعكست مظاهر الأدب والكتابة الدعائية، من خلال العديد من المؤلفات، مثل كتاب "الحروب الأهلية في غرناطة" لمؤلفه "بيريث دي إيتا"، والذي شارك في

إخماد ثورة البشرات عامي 1568-1570م، بحيث يتضح لنا أن موقف صاحب الكتاب من الحروب التي دارت في إسبانيا أنها كانت حروبا أهلية بين إسبان يعتنقون ديانتين، في حين أن تصوره يتناقض من خلال إظهاره لصورة الأندلسيين كغرباء قام أجدادهم العرب بغزو إسبانيا[1].

تميزت الكتابات الكلاسيكية الإسبانية بالطبيعة الإخبارية في تناولها للقضية الأندلسية؛ مثل كتابات "مارمول كاربخال"، والتي نذكر منها على سبيل المثال "وقائع ثورة الموريسكيين"[2]، والذي يعد من بين أكثر المصادر الإسبانية عداء للقضية الأندلسية، وذلك لخضوعه للجهات الرسمية، إضافة إلى أعماله العسكرية إلى جانب الامبراطور "شارلكان" في تونس، في حين أن عددا كبيرا من المؤلفات اتمست بطابع التاسيتية[3] الأدبية والسياسية، كما اتسمت أغلب كلاسيكيات هذه الفترة بطابع الكتابة الدينية في ظل تأثرها بمجموع الأحداث التي ميزت شبه الجزيرة الإيبيرية، وإشراف الكنيسة على الكتابات التاريخية لتوجيه وإدارة مشروعها الديني ذو الأبعاد الاستراتيجية والجيوسياسية.

من بين الكتابات الإسبانية التي اتسمت بطابع الكتابة الدينية نذكر كتاب "حماية العقيدة الكاثوليكية من المتنصرين الجدد" للقسيس "خايمي بليدا"[4]؛ الذي رافق الجيوش المسيحية، فكرس لأطروحة الدفاع عن العقيدة المسيحية من المسلمين، كما عبر هذا النوع من الكتابات عن "عدالة طرد المسلمين"، واعتبره "تاريخيا" من خلال العديد من المؤلفات نذكر منها كتاب "الطرد التاريخي للمسلمين من إسبانيا" للراهب "ماركوس دي غوادالخرا"[5]، وكتاب "الطرد المبرر للموريسكيين الإسبان" لـ"أثنار كاردونا"[6]، إضافة إلى كتاب "الطرد العادل للموريسكيين من إسبانيا" لـ "داميان فونسيكا"[7].

كما سعت العديد من الكتابات نحو إضفاء الشرعية الدينية على ممارسات محاكم التفتيش من خلال الاستعانة بأعمال الرهبان والقساوسة، مثل نص الراهب "خيرونيمو باوتستا: "إن مملكة الشيطان يشكلها الملحدون والمرتدون، الذئاب والأسود والدببة والثعابين والحيوانات الشريرة من المرتدين والكافرين واليهود والمسلمين والأشخاص الضارين بالكنيسة المقدسة"[8].

وقد اتجهت الكتابات الإسبانية نحو التحرر تدريجيا من القيود الدينية المفروضة عليها، من خلال محاولات التجديد في تناول القضية الأندلسية والتطرق لها من منظور تاريخي وسياسي واجتماعي واقتصادي، ليظهر تيار فكري خلال القرن التاسع عشر والذي اعتبر بمثابة تيار مكمل للكتابات الكلاسيكية منها كتاب "الوضع الاجتماعي للموريسكيين" لـ

"خانير"[9]، وعلى الرغم من استغلال الاسبان للوثائق الأرشيفية المهمة منها تلك الخاصة بمحاكم التفتيش إلا أن نظرتهم للطرد المسيحي للمسلمين ظلت تشوبها مظاهر العنصرية.

وعلى اعتبار الانحياز المعرفي الناتج عن العصبية للدين والعرق التي ميزت الكلاسيكيات الإسبانية، فإن الاسطوغرافيا الاسبانية الحديثة والمعاصرة تأثرت بمجموع تلك الكتابات التي اتخذتها مصادرا للدراسة، والتي عكست مظاهر التمييز الممارس ضد الأندلسيين، من خلال موقفها الداعم للإضطهاد الممارس ضد هذه الفئة، واعتبارها أن هذه الأقلية تشكل خطرا على الكنيسة في إسبانيا، وقد نعتتهم بأبشع الصفات التي تعكس مظاهر الحقد المسيحي على مسلمي الأندلس مثل: "الثعابين"[10]، إلى غير ذلك من المصطلحات التي تعبر عن انحياز معرفي في الكتابات التاريخية والأدبيات الإسبانية.

في نفس السياق دعت بعض الكتابات الإسبانية إلى التأسيس لتاريخ إسبانيا انطلاقا من "إسبانية الأندلس" أو "الإسلام الإسباني" إن صح لنا استعمال هذه المفاهيم انطلاقا من الطرح الذي اعتمدته هذه الكتابات، وذلك من خلال نظرية عدم وجود فتح إسلامي للأندلس سنة 711م، في ظل الصعوبات اللوجيستية التي تتطلبها هذه العملية، وعلى هذا الأساس ذهب هذا الطرح إلى اعتبار أن الأندلس في هذه الفترة هو نتاج لعملية اندماج ناتجة عن العلاقات التجارية، وعلى هذا الاعتبار فإن الحضارة الإسلامية الإسبانية هي "ثمرة داخلية" ولا علاقة لها بكل ما هو وافد من الخارج[11].

هذا التصور بعيد عن الحقيقة التاريخية؛ ذلك أننا إذا قارناه مع مصادر أخرى سواء أجنبية أو محلية فإنه لا يتوافق معها على اعتبار تضافر الشروط والظروف التاريخية المتمثلة في الفتح الإسلامي للأندلس؛ إضافة إلى العلاقات التجارية هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن حديث "Olagüe" عن مظاهر الإندماج الثقافي في المجتمع الإسباني يقودنا نحو طرح الإشكال التالي: ما الذي يبرر مظاهر الإضطهاد ضد الفئة المسلمة التي من المفروض هي فئة وطنية أصيلة غير وافدة إذا أخذنا بالرأي السابق؟

وفي رأي مخالف لما سبق والذي يؤسس لخطاب إيديولوجي انطلاقا من مصطلحات ايديولوجية؛ فإن العديد من الكتابات التاريخية درجت على توظيف مصطلح "المغاربة" للدلالة على مسلمي الأندلس[12]، هذا الخطاب أسس لحالة من التغريب الاجتماعي والثقافي، وأقصى الدور الحضاري لمسلمي الأندلس باعتبارهم جزءا من شبه الجزيرة الإيبيرية، اندمجوا فيها في تاريخ مبكر، واختلطوا مع مختلف الثقافات الموجودة، إذ لا يمكن تاريخيا الحديث عن عرق أصلي في هذا المجال الجغرافي على اعتبار التعدد الثقافي والاجتماعي فيه.

وانطلاقا من اعتبار مسلمي الأندلس "أقلية مغاربية وافدة"؛ فإنها بعد عملية الطرد المسيحي أصبحت تمثل حسب تعبير الكتابات الإسبانية "أقلية هامشية" بعد أن كانت الثقافة المغاربية الأصلية تشكل رمزية تاريخية ومظهرا من مظاهر الهيبة، وعلى هذا الأساس أصبحت هذه الرمزية هامشية، واندمجت الأقلية في ثقافة الأغلبية[13].

يبدو أن مظاهر الحضارة الأندلسية لا تزال لحد اليوم تعبر عن التواجد الإسلامي الإيجابي في شبه الجزيرة الإيبيرية، الذي خلق هوية ثقافية وفنية[14]، تواجدٌ انتهى بعد أعمال غير إنسانية تعكس مظاهر عدم التسامح الديني والتعصب والعنصرية الذي طال هذه الفئة، ولا تزال هذه الممارسات غير الإنسانية محفوظة ضمن الذاكرة الجماعية[15]، لا نقول في الفكر الإسلامي فقط وإنما في الفكر الإنساني أيضا؛ فكان سقوط غرناطة سقوطا لحالة "الاستثناء الإيبيري" التي أقرت التعايش السلمي، هذا التعايش حتى وإن كان لم يصل إلى حد الأركادية[16] ما قبل الحديثة للتعددية الدينية والثقافية، إلا أنه كان يعبر عن مظاهر القبول المتبادل المشروط بين أصحاب الديانات الثلاث، ليحل نموذج التطهير الديني والعرقي والثقافي في إيبيريا النصرانية[17].

بحيث ترى بعض الكتابات الإسبانية المعاصرة، والتي تأخذ بالطرح القائل باعتبار الأندلسيين فئة غير وافدة عن طريق الفتوحات الإسلامية أن الزخم الإيديولوجي الذي حملته الكتابات المعاصرة للفترة التي تزامنت والممارسات غير الإنسانية ضد مسلمي الأندلس، عكست "محاولات تبرير المواجهات بين القوى الإسلامية والمسيحية في المنطقة"، أي أن كلا من الكتابات الإسلامية أو المسيحية حاولت تبرير الوضع التاريخي بما يخدم إيديولوجيتها، وكانت النتيجة حسب هذا الطرح القضاء على الإرث الأندلسي أو تشويهه[18].

هذا الرأي يدفعنا لطرح إشكال آخر يتمحور حول موقف الإسطوغرافيا الإسلامية من هذه القضية، هل كان عليها أن تغطي على الإضطهاد الديني ضد مسلمي الأندلس انطلاقا من اعتبارهم جزء من "الوطن إسبانيا" حسب تعبير الكتابات الإسبانية؟، وإذا كانوا جزء من هذا الوطن هل كان من الضروري أن يتعرضوا لمثل تلك الممارسات؟، ومن منظور بعيد عن التصور الإسلامي ما موقف الإسطوغرافيا الأكاديمية من القضية الأندلسية من الجانب الإنساني بغض النظر عن طابعها الديني؟، هنا يمكن القول أن الكتابات الإسبانية التي عرضناها سابقا وضعت الموضوع في نطاق إبيستمولوجي لكن منفصل عن الحقيقة التاريخية.

كما بررت الإسطوغرافيا الإسبانية أيضا التوسع العسكري والتهديدات الممارسة من طرف الإسبان على السواحل المغاربية بمحاولات "استرجاع الممتلكات الإسبانية في شمال إفريقيا"؛ معتبرة المنطقة مجالا موروثا للمسيحية، وفي نفس الوقت اعتبرت الصراع التقليدي بين البحارة الجزائريين وشبه الجزيرة الإيبيرية مبررا لممارساتها كرأي متناقض[19]، وفي إطار هذا الصراع شكلت الجزائر ملاذا للهجرة الأندلسية على مراحل انتهت باستقبال إيالة الجزائر عددا كبيرا من الأندلسيين، ساهموا في بعث معالم الحضارة الأندلسية في جميع المجالات، واندمجوا ضمن النسق الاجتماعي.

2.1 الخطاب المعتدل: تجدر الإشارة ضمن هذا السياق أننا قمنا بعرض الخطاب الذي صبغ بصبغة إيديولوجية خاصة من خلال بعض الكتابات الإسبانية، وهذا لا يعني عدم وجود خطاب معتدل حاول تبني هذه القضية بمنظور علمي وحضاري مثل كتاب "الموريسكيون الأندلسيون، المجابهة الجدلية" لـ"لوي كارديناك"[20]، إضافة إلى كتاب تاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية" للمؤلفين "أنطونيو دومينغيث أورتيث" و"بيرنارد فانسون"، من خلال إثارتهما لمجموعة من الإشكاليات بمنظور علمي أنطولوجي غير منفصل عن وضعية المسلمين قبل عملية الطرد، معالجين الآثار الاقتصادية الناتجة عنه، وذلك بتتبع ما اصطلحا على تسميته بـ"الشتات الموريسكي"، والذي اعتبراه "نزيفا بشريا"، و"خسارة فادحة لحيوية إسبانيا"[21].

هذا إضافة إلى مجموع المؤلفات الخاصة بـ"خوليو كاروباروخا"، والتي وقف من خلالها هذا المؤلف على نقد مصادر القرنين السادس عشر والسابع عشر بمنهج علمي في دراسته لوضعية مسلمي غرناطة، وما تعرضوا له في منفاهم الإجباري خاصة في مؤلفه المعنون بـ"مسلمو مملكة غرناطة"[22]، والذي إضافة إلى ذلك عالج فيه إشكالية مهمة تتمحور حول "نقاء الدم"، على اعتبار الاختلاط الثقافي والامتزاج الحضاري بين الأجناس المختلفة المكونة لمجتمع شبه الجزيرة الإيبيرية، والذي يفند التصورات العنصرية الداعمة لسياسة التنصير، التي حاولت تصفية الأعراق غير المسيحية بدعوى "نقاء الدم"، وهذا ما عكسته مظاهر حظر العادات والتقاليد الإسلامية تمهيدا للقضاء على الإرث الثقافي الإسلامي.

بحيث تشير مذكرات "فرانثيسكو نونييت مولاى" إلى البنود والأوامر الصادرة عام 1567م، والتي تضمنت مجموع العادات المحظورة، والتي يمكن الاطلاع عليها من خلال كتاب"الموريسكيون الأندلسيون" لـ"مرثيديس غارثيا أرينال"[23] التي قامت بنشره، وعالج العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في شبه الجزيرة الإيبيرية من جانب مخالف لما تطرقت له

الكتابات الإسبانية الأخرى، عن طريق إبراز هذه العلاقة في جانبها الاجتماعي بعيدا عن التأثير السياسي والديني، ومن جهة ثانية يعرض رصيدا وثائقيا هاما، يمكن العودة له والاستفادة منه، خاصة وأنه اعتمد على وثائق عربية مهمة.

كما تجدر الإشارة إلى أن العديد من الكتابات الإسبانية التي دافعت عن القضية الأندلسية وعن الهوية الإسلامية التي تزامن تأليفها مع أحداث هذه القضية كانت ممنوعة من النشر والتداول بسبب ظهور تيارات فكرية وتاريخية وتأليفية دعمت الممارسات المسيحية ضد المسلمين مثلما أشرنا سابقا، وعلى هذا الأساس لم تنشر العديد من الكتابات إلا بعد مرور فترة زمنية مهمة، منها كتاب "حرب غرناطة" لـ"أورتادو دي مندوثا"[24]، الذي يعتبر من بين أهم المصادر الإسبانية الموضوعية.

هذا إضافة إلى بعض الكتابات المدافعة عن الدور الحضاري والثقافي لمسلمي الأندلس مثل كتاب "الدين والدم إبادة شعب الأندلس" لـ"ماثيو كار"[25]، والذي سعى نحو التأسيس لخطاب تاريخي معتدل بعيدا عن الخطابات الشوفينية[26] المعادية للإسلام في العالم الحديث المعاصر، من خلال تطرقه لسياسة الاحتواء الثقافي التي خضع لها الأندلسيون في إطار الممارسات المسيحية ضد الثقافة الإسلامية، ورفضها لثقافة الاختلاف؛ هذا إضافة إلى بعض الكتابات الأخرى التي تعتبر على قدر من الأهمية في التأريخ للهجرة الأندلسية وآثارها على المجتمعات المغاربية مثل كتاب "الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى" لـ"ميكيل دي إيبالثا"[27].

تجدر الإشارة أخيرا ضمن هذا السياق إلى أن الكتابات الإسبانية درجت على توظيف مصطلح "الموريسكيين" للدلالة على "مسلمي الأندلس"، وقد كان توظيفنا لمصطلح "المورسكيين" في سياق الحديث عن الكتابات الإسبانية، حيث أن هذا المصطلح يعتبر من بين المصطلحات المتداولة في البحوث التاريخية؛ فبعض المصادر وظفت المصطلح بالمعنى العام، والذي يعني المسلمين الذين كانوا يعيشون في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبعض المصادر ترى أن هذا المصطلح يعني الإسبان المسلمون الذين تم تعميدهم بمقتضى مرسوم الملكين الكاثوليكيين في 14 فبراير 1502م، كان عددهم كبيرا في أراغون السفلى وجنوب بلنسية وفي غرناطة وأقل عددا في قشتالة، وذلك حسب معلومات سجلات الضرائب الواردة في بعض المصادر الأوروبية، كما فرق المؤرخون بين مصطلح مدجن "Mudéjar"، وبين مصطلح موريسكي "Morisco"، حيث أن مصطلح مدجن يطلق على المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت حكم المسيحيين، الذين فتحوا واستردوا الأراضي الأندلسية، أما مصطلح موريسكي

فيعني المسيحي الجديد أي المدجن الذي تنصر عنوة دون رغبة، كما أن مصطلح "موروس" "Moros" أي مسلمين يطلق في بعض النصوص الإسبانية على عرب إسبانيا أو مسلمي الأندلس والمغرب[28]، في حين أننا ضمن هذا المقال التزمنا بتوظيف مصطلح "مسلمي الأندلس".

انطلاقا مما سبق شكلت الهجرة الأندلسية والقضية الأندلسية موضوع بحث مهم في الحقول المعرفية الإسبانية، كما انعكست تداعياتها على المستوى المتوسطي من خلال تفاعلها مع القوى المغاربية، بخاصة بعد ظهور الدولة العثمانية على الساحة السياسية والعسكرية، وتثبيت سلطتها في الجزائر، وقد ارتأينا أن نعالج دور إيالة الجزائر في التفاعل مع القضية الأندلسية من خلال بعض المحطات التاريخية من أجل الوصول إلى تصور تاريخي يفند التصورات العنصرية التي حاولت تقليص دور مسلمي الأندلس التاريخي والحضاري، وعلى هذا الأساس سنحاول التعرض لدور الأندلسيين من خلال أنموذج إيالة الجزائر، والأسباب التي دفعت هذه الإيالة إلى تبني الدفاع عن هذه القضية.

2. انضمام الجزائر للدولة العثمانية والقضية الأندلسية: تميزت الأوضاع التي سبقت إنضمام الجزائر للدولة العثمانية بفراغ سلطوي عكس مظاهر الصراع حول السلطة بين الإمارات المحلية، في ظل ضعف الدولة الزيانية والدويلات المغاربية التي انبثقت عن سقوط الموحدين، في الوقت الذي استكملت فيه أوروبا وحدتها السياسية، واتجهت إلى التوسع نحو الضفة الجنوبية للمتوسط، واتخذت من العامل الديني سببا في صراع النفوذ الذي تبنته، وعلى هذا الأساس شكلت القضية الأندلسية محور الصراع الديني بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي، صراع ظاهره ديني أما باطنه فقد أخذ أبعادا إستراتيجية واقتصادية في إطار الصراع حول مناطق النفوذ.

هذا الصراع تفاعلت ضمنه العديد من القوى الإقليمية، ليأخذ أبعادا دولية ساهمت في تعجيل اتصال الجزائر بالدولة العثمانية بعد سلسلة من الأحداث السياسية والعسكرية التي ميزت المنطقة المتوسطية؛ بعد النشاط البحري الذي مارسه الإخوة بربروس، نشاط كانت آثاره واضحة على المخيال الجماعي للجزائر.

ساهم الإخوة بربروس في دعم القضية الأندلسية بإمكانياتهم المحدودة في الوقت الذي كانت فيه أوروبا وخاصة إسبانيا تشهد انبعاثا لقوة عسكرية واستراتيجية ناشئة؛ نجحت في تغيير موازين القوى في البحر الأبيض المتوسط بعد سقوط غرناطة، واستغلت ضعف

الدويلات المغاربية، في ملاحقة مسلمي الأندلس، واحتلت في فترة سابقة عددا من الموانئ المغاربية.

نجح الإخوة بربروس في ربط الجزائر بالباب العالي بعد استنجاد سكان الجزائر بهم، على مراحل انتهت بتثبيت الحكم العثماني في الجزائر رسميا بفضل جهود خير الدين بربروس بعد استشهاد أخيه عروج، ونجح العثمانيون في مجابهة النظام المحلي، والتأسيس لسلطة وحضور عسكري قوي، تحولت بموجبه الجزائر من مرحلة المركنتيلية[29] البسيطة إلى إيالة ذات مؤسسة عسكرية قادرة على حماية السواحل الجزائرية في ضل تنامي التهديدات الخارجية، وأصبحت هذه المؤسسة ذات مداخيل مالية هامة.

وقد أدى ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية رسميا سنة 1520م إلى تبني الدفاع عن القضية الأندلسية، على اعتبار بروز الدولة العثمانية كوريث للعالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة العباسية، ونجحت في توظيف الخطاب الديني للتأسيس لحضور سياسي وعسكري قوي في غرب المتوسط، في ظل فقدان عوامل الإندماج المغاربي الذي خلق بيئة القابلية للإستعمار، وعلى هذا الأساس ستساهم الجزائر في التفاعل مع القضية الأندلسية، في ظل سياسة الاحتواء الثقافي والاضطهاد الديني الممارس ضد الأقلية المسلمة.

انعكس انضمام الجزائر للدولة العثمانية في تبني تصور تاريخي وسياسي يقضي باعتبار الجزائر بحكم انضمامها للدولة العثمانية من بين أهم الإيالات العثمانية التي من شأنها تقديم الدعم للقضية الأندلسية[30]، بخاصة بعد ظهور القوة العثمانية في الفضاء المتوسطي، وأصبحت تمثل مصدرا لتقديم العون بعد نجاح عهود الجهاد الأناضولي وبسط النفوذ على البلقان[31]، حيث برزت الجزائر ككيان سياسي مرتبط في سياسته بسلطة الباب العالي، الذي تولى الدفاع عن الإسلام في ظل الصراع الحضاري بين الإسلام والمسيحية من جهة، ومن جهة ثانية برزت الجزائر كقوة عسكرية من خلال قوة مؤسستها العسكرية، المدعومة من طرف العثمانيين، والتي ساهمت في تكوين أسطول بحري قوي، لعب دورا هاما في انبعاث نشاط ملاحي وبحري هام ضد القوى المسيحية.

فقد شهدت سنة 1529م حملة بحرية كبيرة بقيادة أيدين رايس وصالح رايس بأمر من خير الدين بربروس، ساهمت في نقل عدد كبير من مسلمي بلنسية إلى الجزائر[32]، كما تشير مذكرات خير الدين بربروس إلى توجه حوالي 36 سفينة إلى السواحل الإسبانية لنصرة حوالي 80 ألف أندلسي أعلنوا الثورة على الإسبان[33]، في حين تذكر بعض المصادر العثمانية الأخرى نقل حوالي 70 ألف أندلسي إلى الجزائر على متن السفن الستة وثلاثين على سبع مراحل[34].

نفس العدد الذي جاء به "كاتب جلبي" وهو 70 ألف، تضمنه أيضا كتاب "غزوات عروج وخير الدين" بعد أن كتب مسلمو الأندلس لخير الدين يستنجدون به بعد الممارسات العنيفة التي طالتهم، وانطلاقا من هذه الحملة أصبح حسب رأي هذا المصدر من عادة سفن الإيالة إنقاذ ما تستطيع منهم كلما توجهت نحو ممارسة نشاطها البحري والملاحي في البحر الأبيض المتوسط[35]، كما أشار نفس هذا المصدر أيضا إلى أنه انطلاقا من دخول خير الدين لمدينة مستغانم في فترة سابقة ساهمت سفن إيالة الجزائر انطلاقا من هذه المدينة في إنقاذ ما تستطيع من مسلمي الأندلس[36].

تجدر الإشارة إلى أن تبني الدولة العثمانية الدفاع عن الإسلام في هذه الفترة، والذي شكلت القضية الأندلسية أهم حلقاته، فإن نشاط العثمانيين البحري لإنقاذ مسلمي الأندلس كان يتم انطلاقا من إيالة الجزائر، وذلك يرجع إلى الموقع الجيوسياسي الهام للجزائر من جهة، ومن جهة ثانية تعتبر إيالة الجزائر أول إقليم مغاربي انضم للسلطة العثمانية، وشكل نوبة عسكرية عثمانية متقدمة في البحر الأبيض المتوسط، فالدور الجغرافي للجزائر برز بشكل واضح بعد انضمامها للدولة العثمانية، وساهم في تدفق الهجرة الأندلسية، على الرغم من أن الفترة السابقة عن انضمام الجزائر للدولة العثمانية شهدت أيضا هجرة أندلسية لكنها لم تكن واسعة مقارنة مع الفترات اللاحقة.

وانطلاقا من الدور الهام الذي لعبته إيالة الجزائر إلى جانب العثمانيين في مساندة هذه القضية، فإن من بقي من مسلمي غرناطة بعثوا برسالة استنجاد للسلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541م، يشيدون من خلالها بدور الإيالة في التفاعل الإنساني مع قضيتهم: "فقد كان بجوارنا، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين علم بأحوالنا، فاستغثنا به، أغاثنا وكان سببا في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان، ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان"[37].

استمر التدفق الأندلسي في الفترة العثمانية في الجزائر، وساهمت الإيالة الجزائرية في التفاعل مع هذه القضية على طول الفترات التاريخية اللاحقة، وقد ساهم رياس البحر الجزائريين في مواصلة جهود خير الدين والرياس الأوائل الذين دعموا هذه القضية، إلى حين وصول آخر دفعة من مسلمي الأندلس إلى الإيالة، وقد دخلت الجزائر في صراع مع الإسبان على طول الفترة العثمانية في الجزائر، صراع أخذ أبعادا دينية واستراتيجية، تأثرت به الجزائر وتفاعلت ضمنه القوى الداخلية والخارجية.

حيث في سنة 1559م تمكن درغوت رايس من نقل ألف وخمسمائة مسلم أندلسي، وفي سنة 1570 سار أسطول الإيالة الجزائرية إلى بلنسية وحمل ألفين وثلاثمائة، وفي العام الموالي استطاعت سفن الإيالة حمل جميع سكان كالوسا، ليبلغ عدد الغارات البحرية التي قام بها البحارة الجزائريون ما بين سنتي 1528 و1584 ثلاثا وثلاثين غارة، إضافة إلى الغارات التي كانت تقوم بها السفن الصغيرة[38].

إن الجهود التي قام بها بحارة إيالة الجزائر في إطار عمليات الإنقاذ التي مست مسلمي الأندلس الفارين من الاضطهاد المسيحي الذي يعكس مظاهر عدم التسامح الديني، يندرج ضمن بعد إنساني، لا يزال راسخا ضمن الموروث الثقافي والشعبي للشعوب الاسلامية وبخاصة المغاربية والتركية؛ بحيث عبرت الإسطوغرافيا التركية عن "ضرورة إحياء الجانب الإنساني من التاريخ والجانب الإنساني في شخصيات الإيالة الجزائرية في الفترة العثمانية على غرار خير الدين بربروس، درغوث رايس، سنان رايس"[39]، وكل الشخصيات التي ساهمت في التفاعل الإيجابي مع هذه القضية.

3. الدور العسكري للأندلسيين في إيالة الجزائر: ساهم الأندلسيون منذ بدايات توافدهم إلى الجزائر في بعث معالم الحضارة الأندلسية، التي طبعت بها العديد من المدن خاصة الساحلية منها، وقد تميز العنصر الأندلسي بنشاطه المميز، ولعل العديد من الكتابات التاريخية تطرقت للدور الحضاري والثقافي والفني، الذي عكس عوالم ايكوزيتيكية[40] فنية وافدة على المجال المغاربي لا تزال محفوظة ضمن الموروث الثقافي الجزائري والمغاربي؛ وعبرت بعض الكتابات التاريخية عن "التأثير المميز للعنصر الأندلسي على المجتمعات المغاربية"[41].

إن الدور الحضاري لهذا العنصر الحيوي، الذي اندمج ضمن المجتمع الجزائري لا ينفي الدور السياسي والعسكري الذي لعبته هذه الفئة ضمن إيالة الجزائر، نشاط منبثق عن الخبرة السياسية والعسكرية للأندلسيين، الذين استطاعوا في الفترات السابقة عن الفترة العثمانية في الجزائر اقتحام المعترك السياسي، ولعبوا دورا هاما ضمن البلاط الزياني.

إن أبعاد القضية الأندلسية وتداعياتها، وجدت بيئة مناسبة في إيالة الجزائر التي اتسم نشاطها بطابع "الجهاد البحري" ضد القوى المسيحية وعلى رأسها إسبانيا، ما دفع الأندلسيين إلى ممارسة النشاط البحري العسكري في محاولاتهم لرد الاعتبار لقضيتهم والمساهمة في استرجاع "الفردوس المفقود"؛ هذا الدور ساهم في تدعيم الحكم العثماني في الجزائر حسب تعبير دي هايدو "De Haedo"[42].

حيث ساهم الأندلسيون في التأسيس لمعالم الجهاد البحري ضد إسبانيا انطلاقا من الجزائر، ودعموا التواجد العثماني فيها منذ بدايات النشاط البحري للأتراك، أي قبل الانضمام الرسمي للجزائر إلى الدولة العثمانية، ولعبوا دورا عسكريا هاما في تثبيت السلطة العثمانية في هذا الفضاء الجغرافي، واستمرت مساهمتهم العسكرية بعد هذه الفترة من خلال العديد من المحطات التاريخية.

على المستوى الداخلي برز دور الأندلسيين أيضا من خلال مشاركتهم إلى جانب خير الدين بربروس في القضاء على حركات التمرد ضد التواجد العثماني؛ وقد تجسد ذلك في مشاركة حوالي 500 أندلسي في حملة خير الدين ضد حميد العبد المتحالف مع الإسبان، والذي استبد بسلطة مدينة تنس سنة 1517م، كما تأكد الدور العسكري الهام للأندلسيين من خلال مساهمتهم في الدفاع عن مدينة الجزائر خلال حملة شارلكان سنة 1541م، بأزيد من خمسة آلاف أندلسي، كما لعبوا دورا هاما أيضا أثناء ثورة بوطريق، حيث انضم حوالي 500 أندلسي من الرماة إلى جانب قوات مليانة سنة 1544م، وساهموا في القضاء عليها على عهد حسن باشا[43].

كما ساهم الأندلسيون إلى جانب العثمانيين في الحملة العثمانية على المغرب الأقصى، على عهد رمضان الباشا، وذلك بأمر من السلطان العثماني، والتي انتهت بتولي عبد الملك العرش السعدي بمساندة العثمانيين على حساب أخيه المتوكل[44] سنة 1576م، واستنادا إلى بعض الوثائق الإسبانية التي تضمنت رسائل مكتوبة من طرف الملك الإسباني فيليب الثاني موجهة إلى سفير فرنسا فورك فو، والمؤرخة في 6 جويلية 1566م، فإن عدد الأندلسيين المجندين بلغ أكثر من ستة آلاف من مجموع القوة العسكرية المقدرة بـ"خمسة عشر ألف جندي[45].

إلى جانب انضمام عدد كبير من الأندلسيين إلى صفوف المؤسسة العسكرية، فقد ساهموا إضافة إلى دورهم العسكري، في التأسيس لمعالم صناعة حربية، خاصة ما يتعلق بصناعة البارود وصناعة السفن، ولعل ترسانة صنع السفن في شرشال دليل على براعة الأندلسيين في ميدان الصناعات الحربية التي تعدت طابعها الحرفي.

كانت ترسانة شرشال تتم فيها صناعة السفن من نوع الفرقاطة[46] والبريقنتين[47] من طرف الأندلسيين[48]، الذين لعبوا دورا هاما في تنشيط الصناعة والتجارة البحرية ليس فقط في شرشال وإنما في أغلب المدن الساحلية[49]، بحيث كان للعنصر الأندلسي النشيط آثار إيجابية على اقتصاد مدينة عنابة مثلا، والنهوض بميدان الصنائع والمهن المختلفة[50].

تجدر الإشارة ضمن هذا السياق إلى أن المؤسسة العسكرية البحرية ضمت عددا كبيرا من مسلمي الأندلس، في حين أن المجال البري ضم فرقا للأندلسيين لكنهم لم ينخرطوا في صفوف المؤسسة العسكرية البرية في شقها النظامي، وإن تواجدت بعض العناصر فإنها لم تترق في المناصب شأنها شأن الفئة الكرغلية، وذلك على اعتبار السمة الأوليغارشية[51] العسكرية التي عكست النظام الفئوي، وانغلاق الفئة التركية على نفسها فيما يخص التجنيد والترقية وحتى الامتيازات، والتي شكلت على طول الفترة العثمانية صراعا كانت تبعاته واضحة على إيالة الجزائر، وعلى النسق الاجتماعي للبنى الاجتماعية المكونة للإيالة.

4. الأندلسيون وتحصينات الجزائر: على اعتبار حركية العنصر الأندلسي في ميدان الصناعات والحرف المختلفة، والتي ساهمت في انتعاش الميدان الثقافي والتجاري، فإن الأندلسيين برعوا في الميدان العمراني، وعلى اعتبار أن الإيالة الجزائرية عكست معالم نظام عثماني وافد فإنها صبغت بالطابع العسكري، تبعا للظروف المحيطة بالإيالة، والتي أعطت الأولوية للميدان الحربي.

سنحاول ضمن هذا السياق التطرق لأهم المظاهر العسكرية التي ساهم في تشييدها الأندلسيون، من خلال التطرق لطوبوغرافية بعض المعالم العسكرية، التي وضعوا أسسها الأولى، وحافظت على دورها الفعال خلال الفترة العثمانية من خلال إعادة ترميمها والاستفادة منها، إضافة إلى الإشارة إلى بعض الصناعات الحربية الموجهة للغرض الدفاعي ضمن الحصون والقلاع.

يعتبر برج الفنار من بين أهم المعالم المشيدة من طرف الأندلسيين، والذي لعب دورا دفاعا واستطلاعيا هاما، حيث تم تشييده في أواخر القرن 15م، أي في الفترة التي شهدت بدايات التدفق الأندلسي نحو الجزائر؛ تم إقامة هذا البرج على إحدى الجزر المقابلة لمدينة الجزائر، على قاعدة صخرية دائرية يبلغ قطرها حوالي 96 مترا[52]، وتم استخدامه منارا لإرشاد السفن للمراقبة ليلا والاستكشاف[53].

عرف هذا البرج مجموعة من التعديلات حتى يتناسب والدور العسكري الذي أصبحت تمثله الجزائر، وذلك في عهد البيلرباي أحمد عرب باشا سنة 1572م، الذي عرفت فترته توسيعا مهما في سور الميناء وتعديلات هامة على عدد من المظاهر العسكرية، وعلى هذا الأساس تم إحاطة هذا البرج بخندق من جهة البر يصل عرضه إلى خمسة أمتار[54].

كما تم إضافة طابقين لهذا البرج، ليصبح من أربعة طوابق، تم تزويد الثالث والرابع منها بفتحات للمدفعية، في حين أن الطوابق السفلى تم تزويدها بنتوء بمثابة طبقة تحمي

الجهة الشمالية من الميناء، ليصبح شكل هذا البرج إثني عشري الأضلاع، يبلغ عرض كل ضلع حوالي سبعة أمتار عند السطح، أما بالقرب من الأرضية فيبلغ عرضها حوالي ثمانية أمتار، بحيث أن إنحناء الجدار يقدر بـ 30%[55].

تم تسليح هذا البرج بحوالي خمسة وخمسين مدفعا، أربعين منها من العيار الثقيل[56]، كما يحتوي على سرداب يقع فيه مخزن للبارود حسب ما يذكر الأسير كاثكارت[57]، بحيث أن الطابع المعماري لهذا البرج إضافة إلى تسلحيه الجيد جعله من بين أهم تحصينات مدينة الجزائر، وذلك تبعا لموقعه الاستراتيجي، الذي تم استغلاله بعد تمكن خير الدين من استرجاع البنيون وربط الميناء بالجزيرة، ليصبح برج الفنار واحدا من أهم الأبراج العسكرية التي ساهمت في تحصين المدينة وإحكام نظامها الدفاعي.

كان يتم الإشراف على هذا البرج من طرف باش طوبجي، هذا الأخير لا يتم تعيينه على أساس مبدأ الأقدمية المعمول به في المؤسسة العسكرية، ولكن في هذه الحالة يتم تعيينه على أساس مبدأ الكفاءة[58]، ذلك أن إدارة النظام الدفاعي ضمن هذا البرج يحتاج كفاءة في التسيير على اعتبار الإشراف على عدد لابأس به من المدافع.

كما تميزت مدينة شرشال بطابعها الأندلسي، وذلك لكثرة التوافد الأندلسي عليها، وقد ساهم الأندلسيون في تحصين هذه المدينة الساحلية، وقاموا بتشييد أغلب الحصون والقلاع العسكرية بها كقلعة شرشال[59]، كما أن حصن شرشال استطاع دعم النظام الدفاعي للمدينة ضد حملة أندريا دوريا على شرشال سنة 1530م[60].

ساهم الأندلسيون بحكم استقرارهم في مدينة شرشال في تحصينها ضد التهديدات الخارجية، حيث تضمنت بعض التقارير البحرية العسكرية التي أعدها الأوروبيون لوصف المدن الساحلية تمهيدا لشن حملاتهم العسكرية عليها، وصفا لمدينة شرشال ضمن تقرير أرسل لحاكم مالطا سنة 1587م، يتضمن وصفا للنظام الدفاعي لهذه المدينة وخاصية مدافعها والرجال المشرفين على المدفعية بها[61]، كما ينسب للأندلسيين أيضا تشييد حصن خارج باب الوادي بمدينة الجزائر[62].

وعلى اعتبار أن التحصينات العسكرية كان يتم تزويدها بفتحات مدفعية لأغراض دفاعية، فإن الأندلسيين ساهموا في تشييد بطارية تعرف بـ"طبانة الأندلسيين"؛ بأعلى مدينة الجزائر، وكانت هذه الطبانة مجهزة بأربعة عشر مدفعا، وحوالي 17 كوة، منها تسعة موجهة ناحية المرسى، واثنتان منها تقابل الناحية الجنوبية، في حين أن أربعة منها تشرف على مدخل الميناء، واثنتان تتحكمان في مدخل المدينة عند باب الجزيرة[63].

هذه الطبانة أو الطبخانة كانت موجهة نحو جميع الاتجاهات، وذلك لضمان نظام دفاعي محكم في ظل تنامي التهديدات الخارجية، وبخاصة الإسبانية في محاولاتها لملاحقة الأندلسيين، أما الفوهات المتجهة نحو الداخل فالغرض منها القضاء على حركات التمرد الداخلية، إضافة إلى الوقوف أمام إحباط أية محاولة لتوسع الإسبان المتحصنين بوهران أو بجاية نحو مدينة الجزائر، والذين استطاعوا اختراق المجال القبلي، والاستفادة من دور بعض القبائل في التحالف ضد العثمانيين.

أما في إطار تزويد المدافع والتحصينات بالفوهات النارية، فإن الأندلسيين ساهموا أيضا في صناعة البارود، وذلك في إطار المبادرات الحرفية التي امتهنتها العديد من العائلات الأندلسية؛ إضافة إلى تطور هذه الصناعة إلى درجة تشييد ما عرف بـ"دار البارود" من قبل الأندلسيين، وذلك في أواسط القرن 17م[64].

الخاتمة: انطلاقا مما سبق يمكن القول أن القضية الأندلسية أخذت حيزا هاما ضمن المنتوج المعرفي، وقد تطرقنا في هذه الورقة إلى الخطاب الإسباني الذي تناول هذه القضية بمعزل عن سياقها التاريخي والحضاري، وأسس لنظرة استعلائية تقضي بإقصاء هذه الفئة، وتقليص دورها التاريخي، في حين حاولت بعض الكتابات الإسبانية إعادة كتابة التاريخ بمعزل عن التصورات الإسبانية المغرضة، ولا تزال هذه القضية تشغل المخيال الجماعي كقضية إنسانية بالدرجة الأولى بغض النظر عن طابعها الديني أو الاستراتيجي.

وعلى هذا الأساس لا تزال العديد من الكتابات التاريخية المعاصرة تعاني من انحياز معرفي للدين والعرق في ظل التدافعات الحضارية والثقافية التي يشهدها العالم، على الرغم من استغلالها لرصيد أرشيفي مهم، وعلى الرغم من وجود الآثار الإسلامية الأندلسية التي لا تزال تطبع المدن المتوسطية، والتي أضفت جمالا وفنا يفند الأسس التي قام عليها الخطاب العنصري في تحليله لأبعاد هذه القضية، وعلى الرغم من ظهور تيار إسباني تأليفي معتدل.

كما تجدر الإشارة أخيرا إلى أن الجزائر برزت ككيان سياسي وقوة عسكرية منذ انضمامها للدولة العثمانية، وقد ساهمت في دعم القضية الأندلسية منذ مرحلة النشاط البحري للأتراك، وقد كان تبني الجزائر الدفاع عن هذه القضية انعكاسا للروابط المشتركة بين الجزائر ومسلمي الأندلس، حيث تحولت الجزائر في هذه الفترة إلى لاعب إقليمي مهم، تفاعل مع الصراع الحضاري والديني بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي، وعلى هذا الأساس أخذت القضية الأندلسية بعدا استراتيجيا هاما في السياسة الخارجية للإيالة الجزائرية.

وقد ساهم التواجد الأندلسي في الجزائر في تثبيت الحكم العثماني فيها من خلال الدور العسكري الهام للأندلسيين، إضافة إلى مساهمتهم في دعم تحصين الإيالة بمختلف القلاع والحصون ضد التهديدات الخارجية، إضافة إلى التأسيس لقاعدة صناعية هامة لدعم التحصينات من خلال تصنيع البارود، هذه المساهمات المختلفة حملت معالم التأثير الإيبيري إلى الجزائر، وطبعت مختلف المدن الجزائرية بالطابع الأندلسي.

حيث عكست المظاهر العسكرية معالم نظام دفاعي في ظل استمرار التهديدات المسيحية على السواحل المغاربية، والتي اتخذت من هذه القضية ذريعة لممارساتها، هذه الممارسات لقيت دفاعا من طرف الإيالة الجزائرية بمساندة الأندلسيين، وعلى هذا الأساس فإن النشاط البحري للجزائر لا يعكس طابع "القرصنة" الذي يندرج ضمن النطاق السلبي، والذي حاول الأوروبيون تكريس مفهومه للتغطية على ممارساتهم غير الإنسانية، والتي دافعت عنها الكثير من الكتابات التاريخية.

الهوامش:

1- خينيس بيريث دي إيتا: الحرب ضد الموريسكيين، الجزء الثاني من الحروب الأهلية في غرناطة، تر: عائشة محمود سويلم، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص14.

2- مارمول كاربخال: وقائع ثورة الموريسكيين، تر: وسام محمد جزر، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012.

3- نسبة إلى تاسيتوس، يعرف بهذا المصطلح التيار الفكري السياسي لأواخر القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، ظهر في شبه الجزيرة الإيبيرية بين أولئك الكتاب الذين وصلوا إلى مستوى من النضج في فترة ما بعد وفاة فليب الثاني، واتخذوا من تاسيتوس قدوة لهم، بهدف صنع سياسات قائمة على الأدلة، ينظر: مقدمة ترجمة كتاب: أنطونيو دومينغيث أورتيث وبيرنارد فانسون: تاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية، تر: محمد بنياية، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2013، ص10.

4-Bleda Jaime, Defensio feidei in causa neophytorum siue Regni Valentiae totiusque Hispaniae, edición digital basada en la de Valentiae, Apud Loannen Chrysostomum Garriz, 1610.

5- Marcos De Guadalajara Y Javier, Memorable explusion y justissimo destierro de los Moriscos de España, por Nicolas De Afsiayn, Pamplona, España, 1613.

6- Pedro Aznar Cardona, Expulsión justificada de los moriscos españoles y suma de las excelencias christianas de nuestro rey Don Felipe El Catholico, tercero de renombre, dividida en dos partes, por Pedro Cabarte, Huesca, España, 1612

7- Damián Fonseca, Justa expulsión de los Moriscos de España con la instrucción apostasia y trayción dellos, por Jacomo Mascardo, Roma, 1612.

8- نقلا عن: خوليو كارو باروخا: مسلمو مملكة غرناطة بعد عام 1492، تر: جمال عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2003، ص28.

9- Florencio Janer, Condición social de los Moriscos de España, imprenta de la real academia de la historia, Madrid, 1857.

10- الرواية الإسبانية "El coloquio de los perros"لـ "Cervantes" نقلا عن: لوي كارديك: الموريسكيون الأندلسيون المجادلة الجدلية (1492-1640)، تر: عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص100.

11- Ignacio Olagüe, La revelución islámica en occidente, Fundación Juan March, Madrid, 1974, p75.

12- Anne Cenname, La España perdida :El discurso sobre moros y cristianos, universitas osloensis, Oslo, 2014, p03.
13- Echevarría Arsuaga, Los Moriscos, Sarriá, Málaga, 2010, p33. P61.
14- Ahmet Gedik, Endülüs sanatları, İstem dergisi, yıl7, sayı14, Konya, Türkiye, 2009, s.449.
15- Saffet Yılmaz, Elveda endülüs, Bursa'da zaman dergisi, sayı21, 2017, s.40-41.

16- أركادية: منطقة جبلية في اليونان القديمة، اشتهرت بأنها موئل الرعاة البسطاء القانعين بما قسم لهم، وتستخدم الكلمة للدلالة على البلاد المتسامحة التي ترفض الكراهية والعنف وتتبنى قيم التسامح والتفاهم والتعايش، في حين أن الأركادية كحركة أدبية ظهرت في أوروبا مع القرن الثامن عشر، وتميزت بالعودة إلى الحياة الواقعية في الريف والتغني بها والاستلهام بها، فتميز هذا النوع من الكتابات بالبساطة والتخلص من مظاهر المبالغة في كتابات المدرسة السابقة، ينظر:

ماثيو كار: الدين والدم إبادة شعب الأندلس، تر: مصطفى قاسم، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2013، ص12. وينظر أيضا: فيكتور هيجو: مقدمة كرومويل، تر: علي نجيب إبراهيم، شركة كتاب للنشر والتوزيع الالكتروني، مصر، 2007، ص.17.

17- ماثيو كار، المرجع نفسه، ص12-13.

18- Eduardo Manzano, El islam en la península ibérica, Cuadernos de la escuela diplomática, N°48, España, 2013, p212-213.
19- Miguel Angel De Buenes Ibarra, CarlosV Venecia y la sublime puerta la embajada de Diego Murtado De Mandoza en Venecia, sociedad estatal para la conmemoración de los centenarios de Felipe II CarlosV, Madrid, 2001, p607.

20- لوي كارديناك، المرجع السابق.---21- أنطونيو دومينغيث أورتيث وبيرنارد فانسون، المرجع السابق، ص385.

22- خوليو كاروباروخا: مسلمو غرناطة بعد عام 1492، تر: جمال عبد الرحمن، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2003.

23- مرثيديس غارثيا أرينال: الموريسكيون الأندلسيون، تر: جمال عبد الرحمن، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2003، ص53.

24- أورتادو دي مندوثا: حرب غرناطة، تر: إيمان عبد الحليم، سلوى محمود، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008.

25- ماثيو كار، المرجع السابق.

26- مصطلح الشوفينية يقصد به الاعتقاد المغالي في الوطنية، وتعبر عن غياب رزانة العقل والاستحكام في الميل لمجموعة ينتمي إليها الشخص والتحيز لها للتحامل على جماعات أخرى، وينسب لفظ الشوفينية إلى جندي فرنسي "نيقولا شوفان" كان متفانيا في القتال في جيش نابليون دون مساءلة لجدارة قضيته، ينظر: عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق: الشوفينية بحيث في المصطلح وتاريخه ومذاهبه الفكرية، المركز الاسلامي للداراسات الاستراتيجية، العراق، د. ت، ص10-12.

27- ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، تر: جمال عبد الرحمن، ط1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2005.

28- لتفاصيل أكثر ينظر: جمال عبد الكريم: الموريسكيون تاريخهم وأدبهم، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ص6-7/أنطونيو دونينغيث أورتيث، بيرنارد فانسون، المرجع السابق، ص7.

29- هو مذهب سياسي إقتصادي ظهر في أوروبا بداية القرن السادس عشر يقضي باعتباره نزعة للمتاجرة من غير اهتمام بأية اعتبارات أو بمصالح الغير، وفي السياق الذي وظفنا فيه المصطلح نقد من خلاله أن الجزائر تحولت من مرحلة النشاط البحري المتواضع غير المؤطر من طرف السلطة إلى مؤسسة عسكرية تمارس نشاطها البحري بضوابط من سلطة الحكم.

30- Lütfi Şeyban, Endülüs, Albaraka, İstanbul, 2014, s.95.
31- Qiyas Şükürov, Endülüs istidanamesi ve Kemal reis'in ispanya seferi, Istem dergisi, yıl 7, sayı14, 2009, s.314.

32- محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1977، ص386.

33- خير الدين بربروس: مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج، ط2، دار الأصالة، الجزائر، 2013، ص.147

34- كاتب جلبي: تحفة الكبار في أسفار البحار، تح وتر: محمد حرب، تسنيم حرب، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ص101.

35- مجهول: كتاب عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934، ص82.

36- نفسه، ص48.---37- عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني، المجلة التاريخية المغاربية، ع3، جانفي 1975، تونس، ص45-46.

38- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص388.

39- Salim Durukoğlu, « Efsane romanı başkişisi barbaros hayreddin paşa 'nın karakter tip ayrımında psikanaltik çözümlemesi », Ankara uluslararası kültür sanat edebiyat ve eğtitim bilimleri dergisi, Ankara, 2017, s.124-126.

40- مصطلح يقصد به المظاهر الفنية والحضارية الوافدة على مجال جغرافي معين.

41- Safaa Monqid, « Les morisque et l'édification de la ville de Rabat », Cahier de la Méditerranée, N°79, 2009, p351.

42- Haedo, F.D, Histoire des rois d'Alger, Adolphe Jourdan, Alger, 1881, p26.

43- ناصر الدين سعيدوني: دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2013، ص129.

44- محمد علي داهش: الدولة العثمانية والمغرب إشكالية الصراع والتحالف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971، ص45-46.

45- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص129.

46- الفرقاطة: وهي سفينة حربية خفيفة، متوسطة الحجم، من نوع الشيني، تحمل شراعا واحدا، ويبلغ عدد المجاذيف بها 12 مجذافا، تتراوح حمولتها ما بين 400 و500 طن، من مهامها الأساسية المراقبة والكشف والحراسة، ينظر: درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار الكتب، مصر، 1974، ص115.

Jal. A, Glossaire nautique répertoire polyglotte de termes de marine anciens et modernes, chez Firmin Didot frères libraires-éditeurs, Paris, 1847, p717.

حليم سرحان: "صناعة السفن الحربية في الجزائر خلال العهد العثماني دراسة مستمدة من النصوص التاريخية والوثائق"، المجلة التاريخية الجزائرية، الجزائر، ع5، ديسمبر، 2017، ص85.

47- البريقنتين: سفينة صغيرة وخفيفة، طويلة ورقيقة، هذا ما يجعلها سريعة جدا، تحمل شراعا واحدا، وتحتوي على عدد من المقاعد للمجذفين يتراوح ما بين 8 إلى 16 مقعدا، سميت عند العثمانيين بإسم "ركندة"، وعرفت أيضا بإسم "القليعة"، تصل حمولتها إلى 150 طن، ينظر: سعاد ماهر: البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية، د ط، دار الكتاب، مصر، 1967، ص331، وينظر أيضا:

Jal, opcit, p342.

حليم سرحان، المرجع السابق، ص82.

48- Haedo.F.D, Topographie et histoire générale d'Alger, Tr, Monnereau et Berbrugger, sans édition, 1870 , p87.

49- Charpentier.A, Terrasse.M, « Le rôle des villes littorales du Maghreb dans l'histoire », Revue de la Méditerranée,école Nationale supérieure maritime, Bou Ismail, numéro spécial, juillet, 2016, p149.

50- ناصر الدين سعيدوني: "الحياة الإقتصادية بعنابة أثناء العهد العثماني"، مجلة الأصالة، الجزائر، ع34-35، 1976، ص94.

51- الأوليغاركية يقصد بها الحكم الفئوي أو حكم الأقلية، مثل انحصار السلطة في يد طبقة عسكرية حاكمة.

52- فهيم اقوارة: ميناء مدينة الجزائر ودوره الإقتصادي في العهد العثماني، د ط، دار الإرشاد، قسنطينة، 2015، ص74.

53- Haedo, Topographie, opcit, p29.

54- Devoulx.A, « Alger étude archéologique et topographique sur cette ville, aux époques romaine (Icosium), arabe (Djezaïr Beni-Maz'renna) et turque (El-Djezaïr) », Revue africaine, N°20, 1876, p481.

55- Ali Khelassi, Constructions militaires ottomanes de la ville d'Alger, Musée central de l'armée, Alger, 1985, p56.

56- مصطفى بن حموش، بدر الدين بلقاضي: تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير ديفولكس، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص88.

57- كاثكارت: مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، تر: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص70.

58- لخضر درياس: المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 1989-1990، ص118.

59- كاتب جلبي، المصدر السابق، ص99.

60- Sander Rang et Ferdinand Denis, Fondation de la régence d'Alger histoire des Barberousse, T1, J.Angé éditeur, Paris, 1837, p245.

61- Monchicourt.CH, « Rapport maritime militaire et politique sur la côte d'Afrique depuis le Nil jusqu'à Cherchell per deux membres de l'ordre de Malte (1er septembre 1587) », Revue africaine, N°325, 1925, p524.

62- ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، المرجع السابق، ص129.

63- نفسه، ص21.

64- نفسه، ص129.